كتاب الشباب

سارق السيارة

أحمد عبدالسلام البقالي



مكتبة العبيكان



سَارِقُ السَّيَّارَة

بقلم

أحمد عبد السلام البقالي

مكتبة العبيكان

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البقالي، أحمد عبدالسلام

سارق السيارة .-الرياض.

---ص، ١٤ X ٢١ سم (سلسلة كتاب الشباب)

ردمك: ٦-٢٣٥-٢٠-٩٩٦٠

١- القصص البوليسية العربية أ- العنوان ب- السلسلة

ديوي ٨١٣,٠٨٧٢ ١٧/٠١٤١

ردمك: ٦-٢٣٥-٢٠-٩٩٦٠ رقم الإيداع: ١٧/٠١٤١

الطبعة الأولى ١٩٩٦م

الطبعة الثانية

١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض ـ العليا ـ تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة.

ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥

هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤، فاكس: ٤٦٥٠١٢٩

لمْ يكنْ عـدنانُ العـروسيُّ يعرفُ أنَّهُ مقبـلٌ على مغامـرةٍ مخيفةٍ ستكونُ نقطةَ تحوُّلٍ في حياتِهِ . . .

قالَ لأفرادِ عصابتِهِ الخمسةِ ، وعيناهُ تلمعانِ :

– الليلةَ سنقـومُ بمغامرةٍ لم نقمْ بهَا من قبلُ ! سنأخـذُ سيارةَ الوالدِ الشيفروليه الجديـدةَ ، ونذهبُ بهَا في فسحةٍ إلى جميعِ معالمِ طنجةَ السيـاحيّةِ ، ابتـداءً من «الشَّرْفِ» ومغاورِ هـرقلَ ورأسِ سبارتيلَ . . . ما رأيكمْ ؟

فصـاحَ الجميعُ فـرِحينَ متَحمّسينَ للفكرةِ . واعترَضَ فـريـدٌ قائلاً :

– ولكنَّكَ لمْ تحصلْ على رخصةِ السياقةِ بعدُ !

– نحنُ سنخرجُ بعـدَ العشاءِ ، بعدَ أن ينامَ الـوالدُ . ولا أحَد يسألُ عن رخصةِ السيـاقةِ في تلكَ الساعـةِ . حتَّى الشرطةُ تقفلُ أقسامَها في السادسةِ ، وتذهبُ للنومِ ، كبقيةِ الموظفينَ !

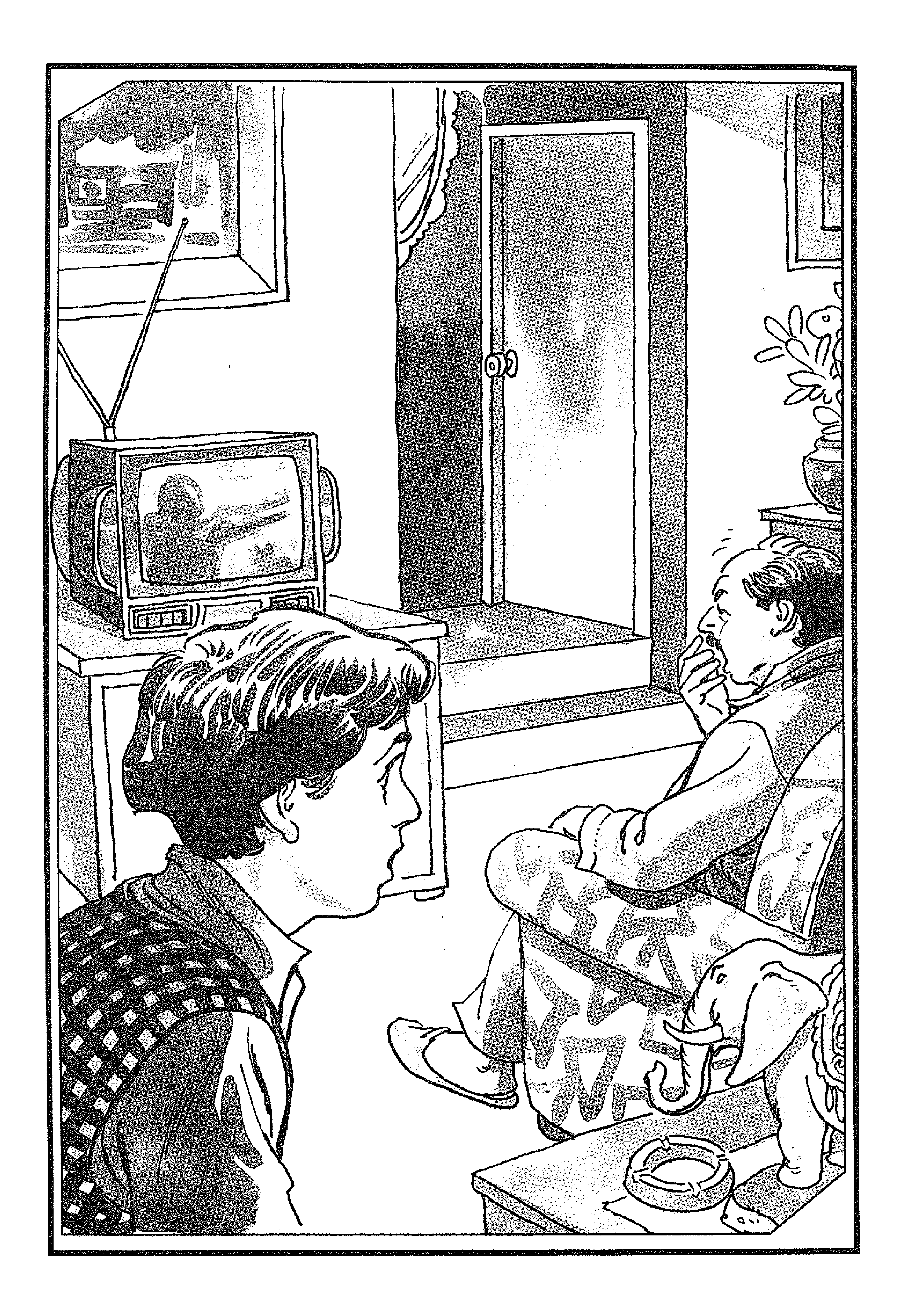
وضحِكَ الأولاد، واقتنعَ أغلبُهم برأيـهِ، حبًّا في المغـامـرةِ، وركوبِ السيـارةِ الجديدةِ وفسحـةِ الليلِ. وطلبَ منهُم عـدنانُ انتظارَهُ وراءَ الدارِ، بعدَ العشاءِ حتَّى يخرُجَ إليهِم.

* * *

جلسَ عـدنانُ بعـدَ العشاءِ يتفرَّجُ علَى التلفـزيون، ويـراقبُ أباهُ بجانبِ عينِـهِ. وكانَ رفاقُه ينتظرونَـهُ في الشارعِ، ويصفِّرونَ لهُ من حينٍ لآخرَ، فيطلُّ عليهِم ويهدئُهم، ويعودُ إلى مجلسه.

كـانَ أبوهُ الحاجُّ عبدُ السـلامِ العروسيُّ رجلَ أعمالٍ سمينًـا، تبدُو عليـهِ مخايلُ النعمةِ. وكانَ يعـودُ من مصنعِهِ مرهقًـا، بعدَ صـلاةِ العشاءِ، فيتعشَّى ويجلِسُ قبـالةَ التلفـزيون، ويـرشفُ القهوةَ، ويغيرُ المحطـاتِ الفضائيَّةَ حتى يغلبَهُ النعـاسُ، ويبدأَ في الشخيرِ، فتأتِي أمُّ عدنانَ وتقودُهُ إلى غرفةِ النومِ.

في تلكَ الليلـةِ، انتظـرَ عـدنانُ حتَّى نـامَ والـدُهُ، ونـزلَ إلى المرآبِ، وفتَحَ بـابَـهُ الخارجيَّ، وركبَ السيـارةَ الشيفـروليـه الجديـدةَ، وأشعلَ محرِّكَهـا الصـامتَ، وجلسَ يتأمَّلُ لـوحَ مؤشراتِهَا الجميلَ.



وحينَ همَّ بـالخروجِ بهَا من المرآبِ وقفَ أمَـامَـهُ شبحٌ أسـودُ رافعٌ ذراعَيْه، فقفزَ فزعًـا، ودقَّ قلبُه، فأشعَلَ النورَ، فإذَا سائقُ والِـدِهِ يعترِضُ طـريقَـهُ، ليمنَعَهُ من إخـراجِ السيـارةِ، فصـاحَ عدنانُ فيهِ :

- تنَحَّ عن طريقِي، وإلا صدمتُك ومررتُ فوقك !

- أرجـوكَ، يا سيـدِي عدنـانُ ! إذا تـركتُكَ تخرُجُ بالسيـارةِ فسيغضَبُ أبوكَ، ويقتلُنِي !

- لا تخفْ، إنه نائمٌ.

- أرجـــوكَ ! أنتَ لا رخصـــةَ لكَ، ولم تبلُغْ بعـــدُ السنَّ القانـونيَّةَ، وقـد توقفُكَ الشرطةُ، أو تفلِـتُ منكَ السيارةُ؛ فهيَ قويَّةٌ جدًّا، وأنتَ غيرُ مدرَّبٍ علَى سياقتِهَا !

- أنـا أسـوقُ جيـدًا ! وأنتَ تعـرفُ ذلكَ، فأنتَ الـذي علَّمْتَنِي.

- هذا سببٌ آخرُ لغضبِ والدِك منِّي . . .

– قلتُ لكَ تنحَّ عنْ طريقي، وإلا أخبرتُهُ بأنَّكَ تسرقُ الوقودَ من خزانِ السيارةِ بالليلِ وتبيعُهُ !

– لن تستطيعَ إثباتَ ذلكَ !

– إذنْ سأخبرُهُ بأنَّكَ تستعملُ السيارةَ كسيارةِ أجرةٍ، أثناءَ أسفارِهِ إلَى الخارج ! وعندي شهودٌ رأوْكَ بِهَا في تطوانَ !

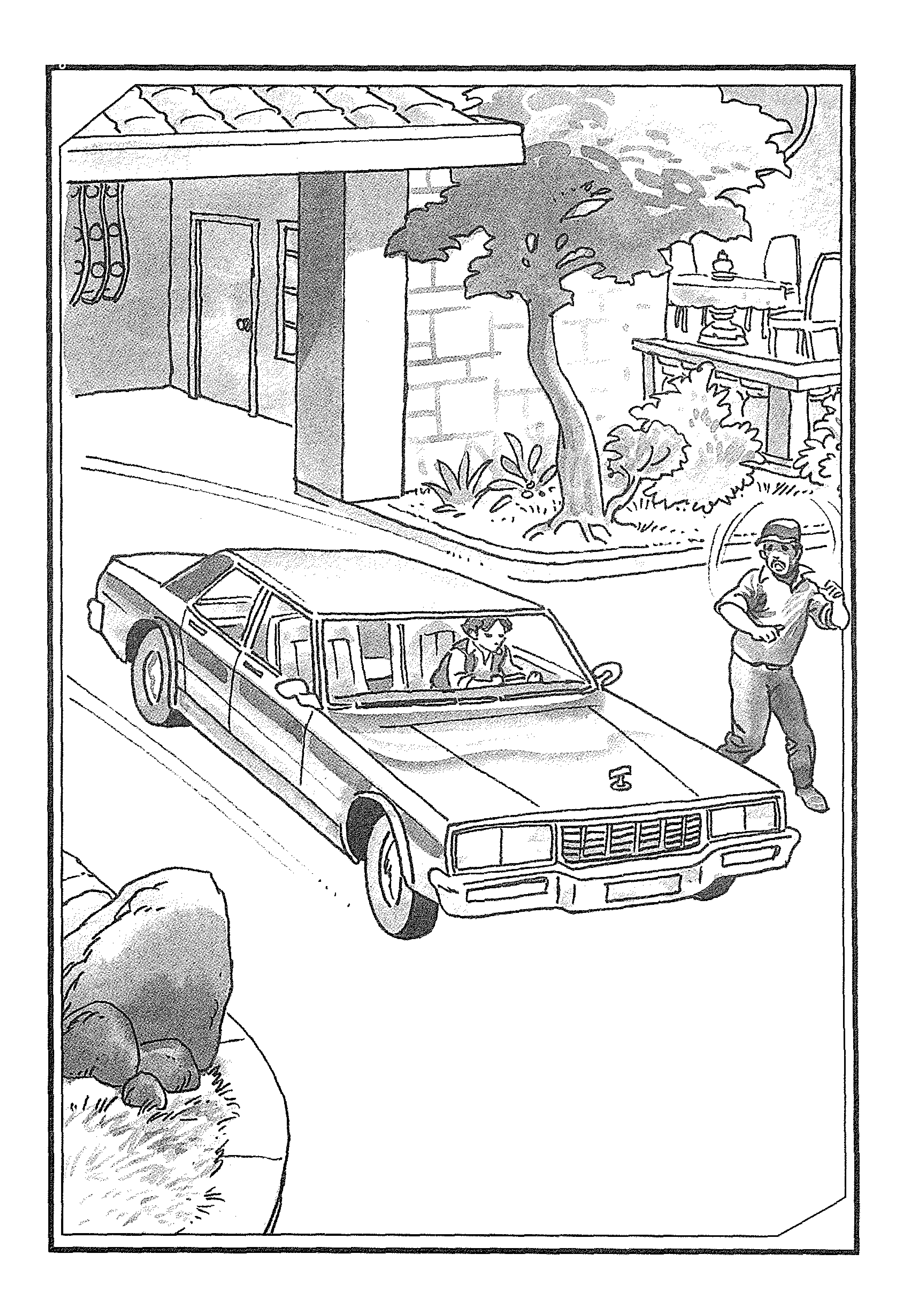
– إنكَ ستخربُ حياتِي.

– وأنتَ تخربُ حياتِي ونشاطِي الآنَ !

كان عدنانُ قليلَ الصبرِ. وكانتْ جماعتُهُ تنتظرُه خلفَ الدارِ، وهو يتحرَّقُ ليسوقَ بِهِم السيارةَ، ويفتخرَ عليْهِمْ بمهارتِهِ الجديدةِ.

ولمّا لمْ يتحرَّكِ السائقُ ضغطَ مداسَ الوقودِ، فقفزتِ السيارةُ منْ مكانِها، وابتعدَ السائقُ ناجيًا بنفسِهِ !

وخرَجَ بالسيارةِ إلى الشارعِ، دونَ أن يتوقفَ عند البابِ ليتأكَّدَ من خُلُوِّ الطريقِ من السياراتِ، فأغمضَ السائقُ عينيْهِ



فـزعًا . . . وكـانتْ سيـارةٌ قـادمةٌ من أسفلِ الشـارعِ ، ففـوجئَ سائقُها بسيارةِ عدنـانَ تعترِضُ طريقَه ! ولحسنِ حظِّ عدنانَ أن سائقَ السيـارةِ كانَ رجـلاً حاضرَ البـديهةِ ، استطاعَ التحكُّمَ في سيارتِهِ ، وتجنّبَ الاصطدام في الوقتِ المناسبِ !

ولمْ يتـوقَّفْ عـدنـانُ حتَّى لـلاعتـذارِ للـرجلِ ، بل انطلقَ بالسيارةِ إلى حيثُ كانَ ينتظرُهُ رفاقُه . . . وجلسَ الرجلُ ، وقلبُه يدقُّ ، وهـو يستغفرُ اللهَ ويحمـدُهُ علَى النجاةِ ، ويستعيـذُ بهِ منْ هذَا الجيلِ المتهوِّرِ !

وخلْفَ الـدارِ وجـدَ الجماعةَ تنتظـرُهُ . كـانُـوا جميعًا يـرتـدونَ مـلابِسَ أبطـالِهِم في السينما والتلفـزيـونِ . . . قمصـانًـا قصيرةَ الأكمامِ ، داكنـةَ الألـوانِ ، عليهَـا صـورُ حيـوانـاتٍ أو أبطـالِ ريـاضـةٍ أو شعاراتٌ بـالإنجليـزيَّـةِ ، ولهم سراويلُ جين ، وفي أعناقِهِم سلاسلُ ، وعلى أرساغِهِم وسـواعِدِهِم أساورُ من الجلدِ الأسودِ ، عليهِ مساميرُ من نُحَاسٍ !

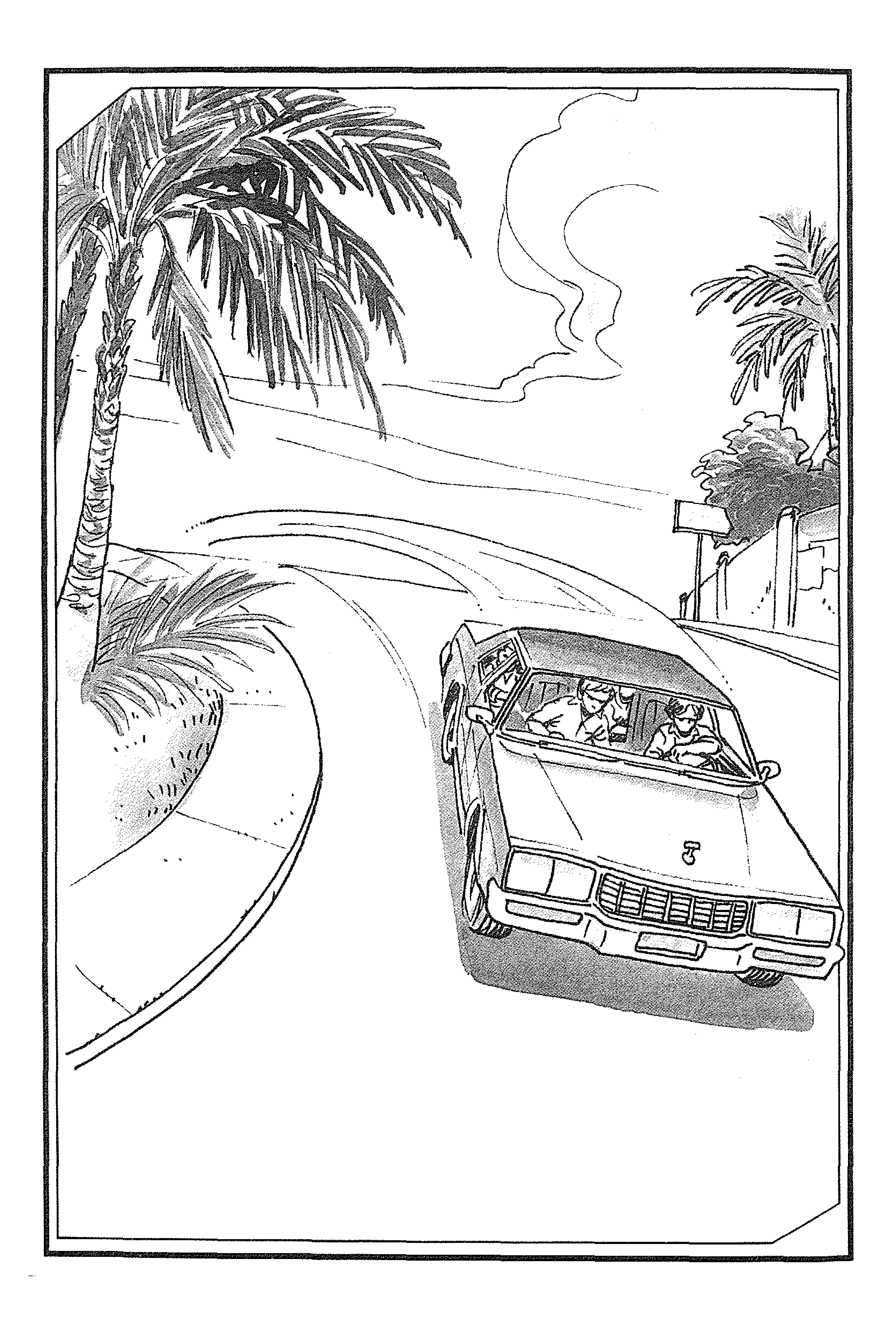
كان عدنانُ أكبرَ العصابةِ سنًّا ، ولكنَّهُ لم يكنْ أكبرَهُم عقلاً !

كان أهوجَ طـائشًا، سريعَ الاستجابةِ لنـزواتِهِ، قليلَ التفكيرِ في عواقبِهَـا. وكانَ أكثَـر إخوتِهِ تعـرضًا للحـوادثِ، فلمْ تكنْ تراهُ دونَ جُرْحٍ أو كسرٍ أو كـدمةٍ زرقـاءَ حولَ عينيـهِ! وكانَ جسمُـه يبـدُو أكبَـرَ من سنِّـه، فكـان يمشِي منحنِيَ الـرأسِ، يـرمِي بقـدميْـهِ إلى اليمينِ وإلى اليسـارِ، ويصطدمُ بـالنـاسِ وأعمـدةِ النـورِ، ويطلبُ العفـوَ في كلِّ اصطدامٍ مع الإنسـانِ والحيـوانِ والجمادِ! وكانت سنُّهُ وقامتُه تعطيانِهِ حقَّ قيادةِ العصابةِ.

ركبتِ العصابةُ السيارَةَ الجديدةَ الفارهةَ، وانطلقَ عدنانُ بهم كالصـاروخِ، وعجلاتُهَا تزعقُ، ويخرُجُ من تحتِها دخـانٌ، لقوةِ احتكاكِهَا بالإسفلتِ!

❊ ❊ ❊

وتحتَ شجـرةٍ كبيرةٍ، وسطَ حـديقـةِ حيِّ مـرشـانَ، جلسَ رجلٌ مُقْعَـدٌ في كرسيِّهِ الـدارجِ، يحكِي لجماعةٍ مـن أطفالِ الحيِّ قصةَ الشريطِ السينمائيِّ التشـويقيِّ القديم «لص بغـداد» للمرةِ العـاشرةِ! وهم مشـدودونَ إليـهِ بعيـونِهم الصغيرةِ الـلامعـةِ،



وكأنَّهُ يحكيها لهم لأولِ مرةٍ . . . كانتْ طريقةُ حَكْيِهِ وخصوبَةُ خيالِهِ تستوليانِ على ألبابِ الصغارِ، وتشدُّهَا إليهِ !

وتوقَّفَ ليشربَ من برادةِ خزفٍ مزخرفةٍ بالقطرانِ، فقامتْ بين طفلينِ مشادةٌ حولَ مكانٍ قريبٍ من الرجلِ، حاولَ أحدُهما دفعَ صاحبِهِ عنه . وتدخلَ الرجلُ المقعدُ لفضِّ النزاعِ، ولكنَّ المعركةَ اتسعتْ، وشملتْ جميعَ الصغارِ! وتحوَّلَتِ الحديقةُ الهادئَةُ إلى ميدانِ حربٍ، واشتبكَ الأطفالُ بالأيدِي والأذرعِ، ونزلَت اللكماتُ علَى الذقونِ، والوكزاتُ على الرؤوسِ، والصفعاتُ علَى الأقفيةِ، والنطحاتُ في البطونِ! وانغرزتِ الأسنانُ في الأذرعِ والسيقانِ، والْتَفَّتِ السواعدُ على الأعناقِ، وعلا الضجيجُ والزعيقُ . . !

كلُّ هذَا والرجلُ المقعدُ يصيحُ، ويناديهِمْ بأسمائِهِم ليكفُّوا عن العراكِ، دونَ جدوَى .

كانتِ الخصومةُ على المكانِ مجرَّدَ فتيلٍ أشعلَ الحريقَ . والواقعُ أنَّ الأطفالَ كانُوا يختزنونَ طاقةً جبارةً؛ لوقوفِهِم طويلاً دونَ حركةٍ، فجاءتْهُم الفرصةُ لتصريفِهَا .

وحينَ نفـدتِ الطاقَـةُ تـوقَّفُوا، وأرادُوا استئنـافَ الاستماعِ إلى الرجـلِ، فرأَوْهُ يـديرُ بيديْـهِ القويتَيْنِ عجلتَـيِ الكرسيِّ غـاضبًا ومغادرًا المكانَ.

وحاولُوا إقنـاعَهُ بالعودةِ لإتمامِ القصَّـةِ، فصاحَ فيهِم: «حينَ كنتُ أطلبُ منكُمُ الهدوءَ لم تلتفتُـوا إليَّ! فاذهبـوا الآن، وابحثُوا عمَّنْ يتمُّ لكمُ القصةَ!»

وحــاولَ دفعَ العجلتينِ، ولكنَّهُم أوقفُــوهُ بقـوَّةٍ، وأخــذُوا يستعطفُـونَهُ، ومنهمْ منْ قبَّلَ كتفَـهُ ويَدَهُ، دونَ اكتراثٍ منـهُ! وأخيرًا قالَ متحـديًا: «تـريدونَنِي أنْ أحكيَ لكُمْ بـالقوةِ؟ إذنْ ستنتظرونَ طـويلاً! ستنتظـرونَ حتَّى ينبتَ الملحُ ويصعدَ الحمارُ السلمَ، وتمطرَ السماءُ أرانبَ وأبقارًا.. !».

وضحِكَ بعضُ الصغـارِ، وأخـذُوا يـدفعـونَ بـه الكـرسيَّ، ولكنْ ليسَ في اتجاهِ بيتِهِ، بلْ في الاتجاهِ المعـاكسِ، وهوَ صامتٌ مصرٌّ علَى ألا ينبسَ بكلمةٍ.

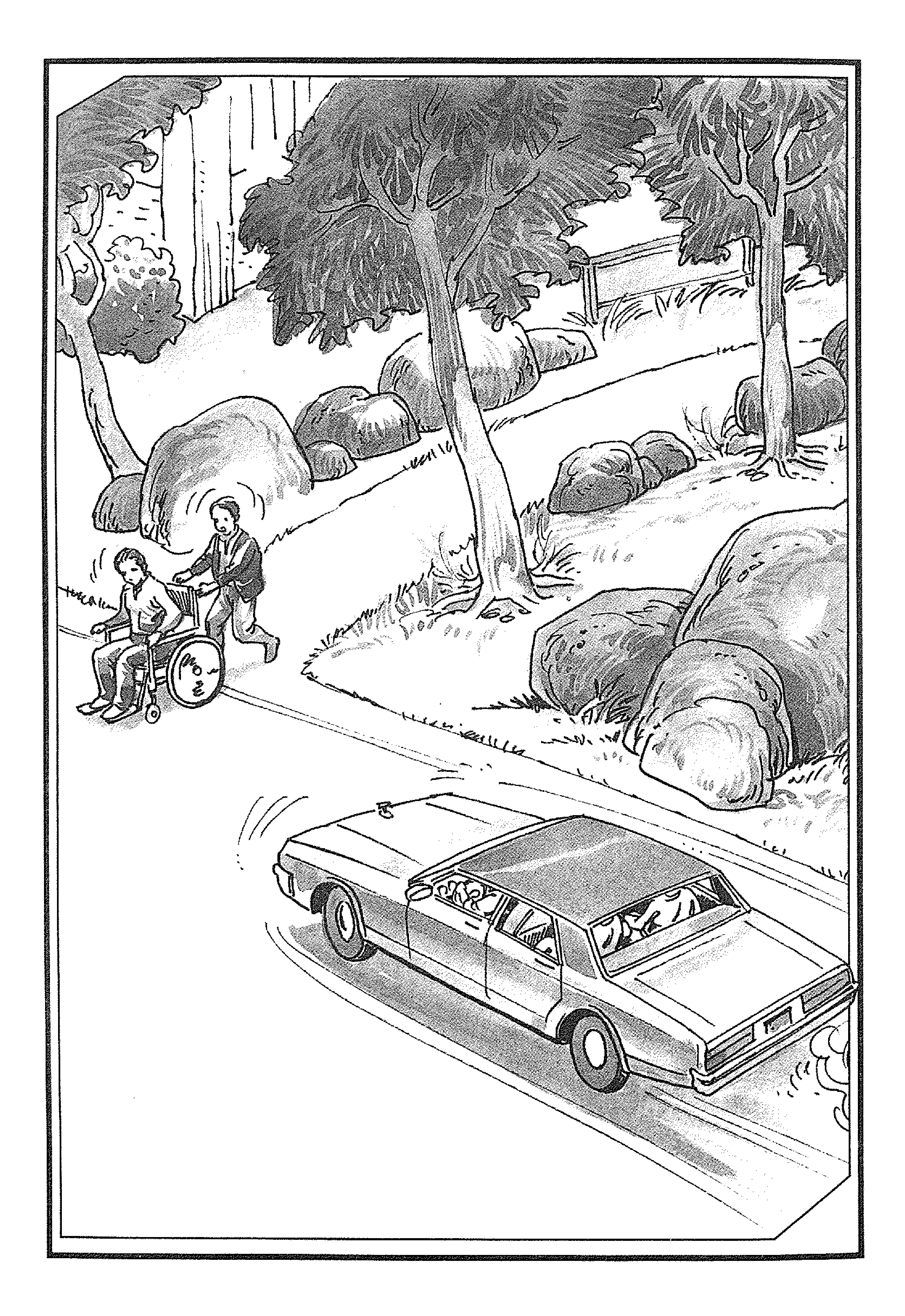
وفي النهايـةِ دفعوهُ نحـوَ طريـقِ سياراتٍ منحـدرةٍ، وأخذُوا يهدِّدُونَـه بإطلاقِ الكـرسيّ عليها، وهـو صامتٌ غيرُ مصـدقٍ

تهديـدَهم . . . وأخـذُوا يـدفعونَـه ، ويقتربـونَ بـهِ من حفـافِ الانحـدارِ ، دونَ أن يبـدُو عليـهِ خوفٌ أو انـزعـاجٌ . وجـاءَ من دفعَهُم منَ الخلفِ ، فتدحرَجَ الكـرسيُّ في المنحدرِ . . . وفزِعُوا ، وجاهَدوا لإيقافِهِ ، فغلبَهُم ، وخرجَ من أيديهِمْ ، وهم يصيحونَ ويستغيثونَ . . .

* * *

انطلقَ عدنانُ بسيارةِ والِدِهِ المسروقةِ صاعدًا عقبةَ القصبةِ إلى حديقةِ مرشانَ . وبينَما هوَ صاعدٌ بسرعةٍ كبيرةٍ ظهَر أمامَهُ شيءٌ يتحركُ ويدرجُ قادمًا نحـوَهُ ، وخلفَهُ عددٌ منَ الأطفالِ يصيحونَ ويلوِّحونَ بأيديهِمْ . داسَ عدنـانُ المِكْبَحَ بقوةٍ ، فارتمَى ركابُه إلى الأمـامِ ، واصطـدمتْ رؤوسُ الأوائِلِ بالـزجـاجِ الأمـاميِّ حتّى كادتْ تكسرُهُ !

واقتربتِ الآلـةُ المتحركـةُ ، فإذا هِيَ كرسيٌّ دارجٌ يجلسُ عليـهِ رجلٌ كسيحٌ خـائفٌ يحاولُ إيقـافَهُ في المنحـدرِ ، دونَ جـدوَى ، حتَّى اصطـدمَ بعنفٍ مع مقـدمةِ السيـارةِ ! وارتفعَ الـرجلُ من مقعدِهِ ، وارتمَى على وجهِهِ فوقَ غطاءِ المحرِّكِ !



وفزِعَ عـدنانُ وارتبكَ، وأخَذَ يفكِّرُ في التراجُعِ وطـرْحِ الرجلِ الكسيحِ، والهروبِ بسرعةٍ من مكـانِ الحادثِ، قبلَ أن يجتمعَ عليهِ الناسُ. ولكنَّ فريدًا الحيّانيَّ الجالسَ إلى جانبِهِ، بادَرَ بفتحِ البابِ، والخروجِ لإغـاثةِ الرجلِ القعيدِ. وتبِعَـهُ بقيَّةُ الغلمانِ، فسحبُـوا الـرجلَ من قـدمَيْـهِ الذابلتَينِ، وأجلسُـوهُ في كـرسِيِّـه المتحـرِّك بصعـوبةٍ، وهـو يشكـرُهُم، ويعتـذرُ عن النـزولِ في الاتجاهِ الممنوعِ، ويسبّ الأطفالَ الذينَ دفعُوهُ إلى المنحدرِ.

وفعلاً وصلتْ جماعةُ الأطفالِ، وأخـذُوا يعتذِرونَ للرجلِ عمَّا حـدثَ، وكيفَ أنَّ الكرسيَّ غلبَهُم، وأفلَتَ منهُمْ في المنحـدرِ. ولاحظَ أحـدُ أفـرادِ عصـابـةِ عـدنـانَ الـدمَ يسيلُ من جبينِ الكسيحِ، فسـارعَ إلى صنـدوقِ الإسعـافِ الأوليِّ بـالسيـارةِ وأخرجَهُ، ونظَّفَ الجُرْحَ، وألصقَ عليهِ ضِمادةً.

ولاحظَ الـرجلُ الكسيحُ أن سـائقَ السيـارة كـانَ دونَ السنِّ القانونيةِ، فسألَهُ:

- كمْ سنُّكَ يا ولدِي؟

- لماذَا ؟

- لا شيءَ، أردتُ فقطْ أنْ أعرفَ هلْ أنـزلُوا السنَّ القانـونيَّةَ لرخصةِ السياقةِ ؟! فقالَ عدنانُ معتدًّا بنفسِهِ :

- السياقةُ ليستْ بالسنِّ، ولكنْ بالذكاءِ والمهارةِ !

- السيـارةُ ليستْ لعبةً، يـا ولـدِي، إنَّهَا آلةٌ ذاتُ حـدينِ، أحدُهُمَا نافعٌ والآخرُ قاتلٌ !

وسألَهُ عن أبيهِ، فضاقَ عدنانُ، وقَالَ :

- كُفَّ عن الأسئلـةِ الفضـوليَّةِ، واحْـكِ لنَا عَمَّـا أصـابَكَ حتّى صرتَ حبيسَ هذَا الكرسيِّ يلعبُ بكَ الأطفالُ.

فقالَ الرجلُ :

- إذا أردتُمْ أن تعـرفُـوا قِصَّتِي فـأعيـدُونِي إلى المكـانِ الـذِي دفعَنِي منهُ هؤلاءِ الشياطينُ.

فاجتمعَ عليهِ الأطفـالُ وعصابَةُ عدنانَ، وتعـاونُوا على دفعِهِ بسرعةٍ إلى أعلَى المنحـدرِ، وهم يتصايحُونَ، وهـو يحتجُّ مخافَةَ أن يفلِتَ منهم الكرسيُّ مرةً أخرَى!

وتحتَ الشجـرةِ الكبيرةِ بحـديقـةِ مرشـانَ اجتمعُـوا عليـهِ، وانتظـرَ هـوَ حتَّى عـادَ عـدنـانُ بـالسيـارةِ، وأوقفَهَـا، وانضمَّ إليهِمْ. قالَ الرجلُ الكسيحُ:

«قصَّتِي حزينةٌ للغايةِ، فقدْ كنتُ في مثلِ سنِّكم حينَ حدثَ لي مـا تـرونَ... كنتُ فتًى قـويَّ الجسمِ، أحـبُّ جميعَ أنـواعِ الريـاضةِ، وألعبُ كرةَ القـدمِ مع الكبارِ، وكذلكَ كـرَةَ السلةِ. وكنتُ بطـلاً فيهِمَا معًـا، تمتلئُ الملاعـبُ حينَ ألعبُ، ويهتفُ بـاسمِي الآلافُ، فيمـدحونَنِي حين أجيـدُ، ويصفِّـرونَ عليّ، ويشتمـونَنِـي حينَ أسيءُ أو أضيعُ هـدفًـا جيـدًا. وكنتُ دائمًا أخرجُ من الملعـبِ محمولاً على الأكتافِ! وكـانَ كلُّ ذلكَ أحلَى من العسلِ. فـلاَ أحبَّ منْ أنْ يهتمَّ بـكَ النـاسُ، حتَّى ولـو انتقدوكَ! أمَّـا أقسى شيءٍ فهو الإهمالُ وعـدمُ المبالاةِ، كـالذِي صرتُ أُعانيهِ بعدَ الحادثِ.

ولكنَّ ولعِي الكبيرَ كـانَ بـالسبـاحةِ، كنتُ أتـدرَّبُ صيفًـا وشتـاءً على يـدِ مـدربٍ فـرنسيٍّ شهيرٍ في ذلكَ الـوقتِ، وكنتُ

أقطعُ المسبحَ الأولمبيَّ في أقلَّ مـن نصفِ الـوقتِ الـذي يقطَعُـهُ فيهِ السباحونَ الآخرونَ، وبمجهـودٍ أقلَّ! وكانَ مدرِّبي يتوقّعُ لي مستقبـلاً دوليًّا عظيماً. وكـانَ طمـوحِي الكبيرُ أنْ أقطعَ بوغـازَ جبل طـارق، وأصِـلَ إلى عـدوةِ الأنـدلسِ، في وقـتٍ قيـاسي جديدٍ!

ولكنْ، إلَى جانبِ كلِّ هذهِ المميـزاتِ الحسنةِ، كانَ لِي عيبٌ لمْ أستطِع التخلُّصَ منـهُ، وهـو الطَيـشُ وعنفُ الطبعِ! كـانَتْ يَـدِي تَسبقُ تفكيرِي، ولا أفكِّـرُ في العـواقبِ إلا بعـدَ فـواتِ الأوانِ...».

وهنَا شعرَ عدنانُ بالحرجِ، فنظرَ حـواليَهِ، وحرَّكَ رأسَهُ حركةً دائريَّـةً، وحَكَّ ذقنَـهُ وظهـرَهُ، في محاولـةٍ لإبعـادِ الشُّبْهَـة عن نفسهِ، وكأنَّ الرجُلَ كانَ يعنيهِ! ولكـنَّ الرجلَ استمرَّ في حديثِهِ قائلاً:

«وكنتُ أحبُّ السياراتِ حبًّـا جنونيًّا... وأعـرفُ عنهَا كلَّ شيءٍ، وأقتَنِي مجلاَّتِهَا ونماذجَها المصغرَة، وأعلِّقُ صورَهَا في غرفةِ

نـومِي ، لأنـامَ وأصحُـوَ عليهَـا ، وكـأَنَّهَا صـورُ أفـرادِ عـائلَتِي وأصدقائِي .

وحينَ بلغتُ الـرابعـةَ عشرةَ أخــذتُ أطلبُ من والِـدي أن يعلِّمَنِي السياقـةَ ، وأستعطِفُهُ وهو يـرفضُ وينهرُنِي ؛ خـوفًا عليَّ من طيشِي وطبعِي العنيفِ . وظلَلْتُ أُلِحُّ عليْـهِ ، وأُقسِمُ له أنَّنِي لا أريـدُ إلا أنْ أتعلَّمَ شيئًـا مفيــدًا ينفعُنِي فِي حيـاتِي . وتغلبتُ عليهِ بأمِّي ، فجاءَنِي بمعلِّمِ سياقةٍ محترفٍ صديقٍ للأسرةِ .

وكانَ معلمًا جيـداً ، وكنتُ تلميذًا مجتهدًا ، فتعلمتُ السيـاقةَ فِي أقصرِ مدةٍ ، وحَفِظْتُ قانونَ الطريقِ ، ولم يبقَ لِي إلا أن أصلَ إلى السنِّ القـانــونيّـةِ لأجتـازَ الاختبــارَ ، وأحصُلَ على رخصـةِ السياقةِ .

وذاتَ يومٍ جاءَ والِـدي بسيارةٍ أمريكيةٍ جديـدةٍ زرقاءَ كلونِ السماءِ . كـانتْ أجملَ مـا رأتْ عينِي ! وركبـتُ فيهَـا فـانتشيْتُ بـرائحـةِ جِـدَّتِهَا ، ورونقِ أثـاثِهَـا الـداخِلِيِّ ، ولـوحِ مـؤشراتِهَا الصقيلِ . كانتْ أوتـوماتيكيّةً ، سهلـةَ القيادةِ ، قويّـةَ المحرِّكِ ، وكأنّها أسدٌ منْ حديدٍ !

فـوقعتُ في حبِّهـا في الحالِ، وطلبـتُ من الـوالـدِ السماحَ لِي بسيـاقَتِهَا. ولكنَّهـا كانتْ عـزيـزةً عليهِ، فأركبَنِي أنَـا والوالـدةَ وأختِي، وأخـذَنَـا في جـولـةٍ بهَا فِي المدينةِ وضـواحِيهـا. كـانَ يسوقُهَـا وكأنَّه يسيرُ على البَيْضِ! لا يتجـاوزُ الستينَ كيلومترًا في الساعةِ، مع أنَّ سرعتَها كانتْ تزيدُ عَلى مائتيْ كيلومترٍ.

وبعدَ الجولـةِ أقفلَ عليهَا بـابَ المرآبِ، واستمرَّ في استعمالِ سيارتِنَا القديمةِ.

وكتمتُ شـوقِي إلى سياقتِهـا، حتَّى جاءَ يـومٌ تُوُفِّيَ فيـهِ أحدُ الأقربـاءِ المسنينَ بمدينةِ الشـاونِ، فاضطُـرَّ الوالدُ إلى الـذهابِ على عَجَلٍ لحضورِ الجِنـازةِ. وحانتْ فـرصتِي لسياقـةِ السيارةِ السجينةِ، وإخـراجِهَا لتتنفَّسَ الهواءَ الطلـقَ، ولأختالَ بهَا على أقرانِي من الفِتيانِ.

وأخـرجتُهـا ليلاً؛ حتّى لا يـرانِي أحـدٌ من أصـدقاءِ الـوالـدِ ويخبرَهُ. ومررتُ علَى خمسـةٍ من أصدقـائِي، وضغطْتُ على المنبِّهِ الموسيقيِّ تحتَ نوافذِ منازِلِهم، فخرجُوا واحداً بعدَ آخرَ، وركبُوا معِي، وهمْ في غايةِ السرورِ.

وصعـدتُ بهمُ الجبلَ إلى قمَّتِـهِ، تـاركينَ خلفَنَـا مـوجـةً منَ الموسيقَى العاليـةِ منَ الراديُـو الستيريو الصـافِي. وأخرجَ الأولادُ رؤوسَهُم وأذرُعَهُم من النـوافذِ المفتوحـةِ. وزادَتْ ثقتِي بنفسِي، وبمهـارتِي في قيـادةِ السيـارةِ الجديـدةِ، رغم أننِـي لم أكنْ قـد تدربتُ علَى السياقةِ بقـدمينِ، اليمنَى لمداسِ الوقودِ، واليسرَى للمكبحِ.

وتوقفنَا عندَ منارِ رأسِ سبـارتيلَ نتفرجُ علَى البواخرِ العظيمةِ الداخلةِ إلى البحـرِ الأبيضِ المتوسطِ عبر البوغـازِ والخارجةِ منهُ إلى عُرضِ المحيـطِ، وعلى الفنارِ الشامـخِ، وهوَ يدورُ ويـرسلُ نـورهُ السـاطعَ مسـافـةً بعيـدةً داخلَ المحيطِ الأطلسيِّ لإنـذارِ السفنِ بعـدمِ الاقترابِ من الشـاطئ الصخـريِّ. كـانَ المنظـرُ جميـلاً، وهـواءُ البحـرِ نـاعماً، وأصـواتُ تكسُّرِ الأمـواجِ على الصخورِ البعيدةِ تحتَنَا تخدِّرُ أحاسيسَنَا.

* * *

وفِي طَـريقِ عـودتِنَـا ، استـولَتْ على الأولادِ رُوحُ المِزاحِ والشقاوة ، فأخذُوا يحرضونِنـي على الإسراعِ في الطريقِ الملتويةِ الضيّقـةِ ، كمَا شـاهـدُوا ذلـكَ في مطـارداتِ العصـابـاتِ في الأفـلامِ . . . ورغمَ طيشِي فقـدْ كـانَ وجهُ والِـدي دائماً مـاثـلاً أمامِي ، وأنَا أدعُو اللهَ في سرِّي أن يُحْسِنَ عاقبةَ تهوُّرِي .

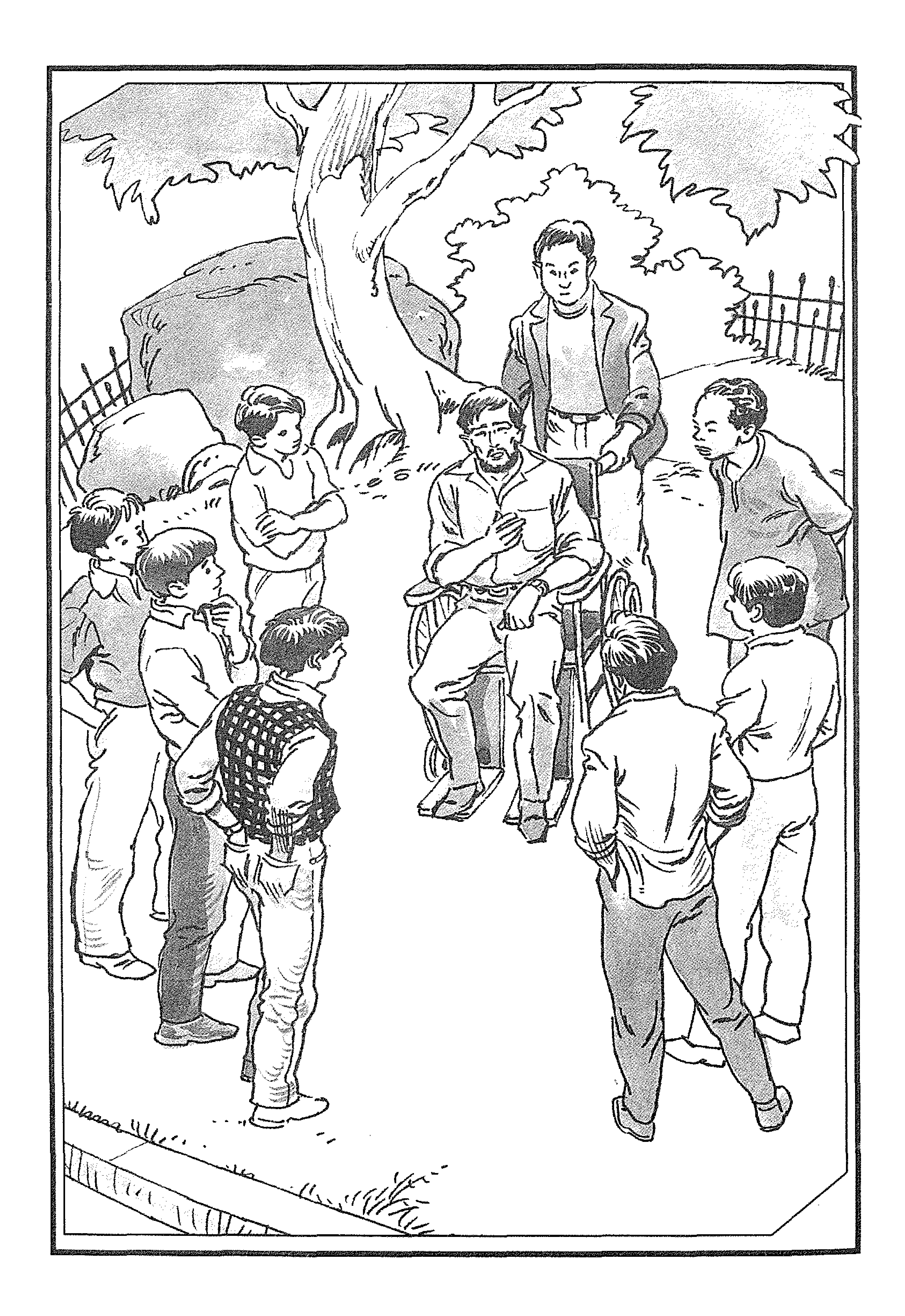
وبينَما أنَا نـازلٌ المنحدَرَ بسرعةٍ معقـولةٍ أغمضَ الولـدُ الذِي كانَ ورائِي عينيَّ بيديْهِ ، فلم أعـدْ أرَى شيئًا . وفي الوقتِ نفسِهِ داسَ الـذِي إلى جانبِي مـداسَ السرعةِ . . . ولم أدرِ مـا أفعلُ ، وتركت المقـودَ لأزيلَ اليدينِ من فوق عينيّ ، فخـرجَتِ السيارةُ عنِ الطـريقِ ، وتدحـرجَتْ رأسيًّـا من فوقِ الجرفِ الشـاهقِ إلى الشاطئِ الـوعرِ البعيدِ ، ونحـنُ بداخلهَا نصرخُ ، ولا حـولَ لنَا ولا قوةَ !

ولحُسْنِ حظِّنَـا سقطتْ بنَـا السيـارةُ فوقَ شجـرةٍ ضخمـةٍ ، خَفَّفَتْ من عنفِ السقطـةِ . ولـو كنَّـا سقطْنَـا فـوقَ إحـدَى الصخـورِ الكبيرةِ التِي تملأُ المكـانَ ، لكـانتِ انفجـرتْ كقنبلـةٍ هائلةٍ ، ولما بَقِيَ منّا نحنُ إلا أشلاء ورائحةُ شواءٍ . . ! » .

وسكتَ الـرجلُ القعيـدُ ليستريحَ من مجهـودِ الحَكْيِ، وظهَـرَ عليهِ الانفعالُ، وأخذَ يلهثُ، وكأنَّهُ كـانَ يجتازُ محنتَهُ من جديدٍ! وكـانَ الأولادُ ينصتـونَ إليـهِ باهتمامٍ شـديـدٍ، وقـد ارتسمتْ على وجوهِهم علاماتُ الفزعِ والخوفِ. . . فقـالَ عدنانُ مظهراً عدمَ الاكتراثِ بالحادثِ: «وبعدَ ذلكَ، ماذَا حدثَ؟».

فقالَ الـرجلُ متنهِّدًا: «بعـدَ ذلكَ تدحـرَجَتْ بنَا السيـارةُ من فـوقِ الشجـرةِ إلَى مـاءِ البحـرِ، ودخلتْ بينَ صخـرتينِ، واصطدمَتْ بثالثةٍ، حتّى انفتحَ غطـاءُ محرّكِها. ولعنفِ الصدمةِ طارَ صـديقِي الحيّاني الـذِي كانَ جالسًـا إلى جانبِي من مكـانِهِ، وخـرجَ من الزجـاجةِ الأمـاميـةِ صارخًـا، وسقطَ فوقَ الصخـرةِ الأماميّةِ فاقدَ الوعي، داميَ الـوجهِ والصدرِ، وتدحرَجَ من فوقِهَا إلى الماءِ. ولوْ لمْ أكنْ مثبتًا على مقعدِي بحـزامِ الأمانِ، لوقعَ لِي ما وقعَ لـهُ! وأحسسْتُ أنَا حينئذٍ بـألمٍ شديدٍ في ركبتَيَّ وسـاقَيَّ، ألمٍ فظيعٍ فوقَ الاحتمالِ البشريِّ، وأغمِيَ عليَّ. .!

وجعلَ اللهُ في قضـائِه اللطفَ، فقـد كـانَ البحـرُ في أقصَى جزرِه. ولو كانَ في مدِّهِ لغرقنَا في الحالِ!



ومن ألطافِ اللهِ كذلكَ أنَّ حارسَ المنارِ شاهدَ الحادثَ، فأخبرَ الوقايةَ المدنيَّةَ والشرطةَ ورجالَ الإطفاءِ، ونزلَ إلى مكانِ الحادثِ، ووقفَ يلوِّحُ بفنارٍ يدويٍّ كبيرٍ، حتَّى يراهُ القادمونَ.

وجاءتْ فرقُ الإغاثةِ منْ كلِّ مكانٍ، وتدلَّى الرجالُ بالحبالِ، واستعْمَلُوا الجراراتِ المركّبةَ خلفَ سياراتِ الجيبِ القويّةِ، وقطعُوا سطحَ السيارةِ بالمناشيرِ الآليةِ، وأخرجونَا واحدًا واحدًا. . . ولم يبقَ من الخمسةِ علَى قيدِ الحياةِ إلا أنَا وولدانِ، خرجَ أحدُهما أعمَى، والثاني مختلَّ العقلِ من أثرِ الرعبِ الشديدِ! وربَّما كذلكَ من أثرِ ضربةٍ قويةٍ على رأسِهِ!».

فسألَ أحدُ الأطفالِ مبهورًا وخائفًا: «وماذَا وقعَ للحيّاني الذي اخترقَ الزجاجَ وطارَ؟».

فأجابَ الرجلُ: «ابتلَعَهُ البحرُ. . . ربَّما عثَرَ عليهِ حوتٌ كبيرٌ، وسحَبَه إلَى داخِلِ المحيطِ، أو جرَّهُ التيارُ التحتِيُّ. . . وقدْ ظهرَ هيكلٌ عظميٌّ رماهُ البحرُ عَلَى شاطئِ روبنسون، بعدَ مرورِ نحوِ أربعينَ يومًا على الحادثِ. ولم يستطعْ أحدٌ تعرُّفَهُ، فدفَنَهُ أهلُ الغريقِ المفقودِ على أنَّهُ ولدُهم. . .».

وحرَّكَ الرجلُ رأسَـهُ متأثِّرًا بتذكُّرِ أحـداثِ قصَّتِهِ، واغرورقَتْ عيناهُ بالدمـوعِ وأضافَ: «وخسرتُ أحسنَ أصدقائِي، الأعمَى لم يعـدْ يـراني ولا يقبلُ حتّـى أن يسمَعَ اسمِي، ومختلُّ العقلِ لا يميِّزُنِي إذا لقيني في الشارعِ، وهو هـائمٌ علَى وجهِهِ. . . أمَّا أنَا فقدْ كنتُ أحسنَهُم حظًّا، خرجتُ من المغامرةِ الطائشةِ المتهورةِ بلا ساقينِ فقطْ، وأصبحتُ. . . لعبةً للصغارِ. . .».

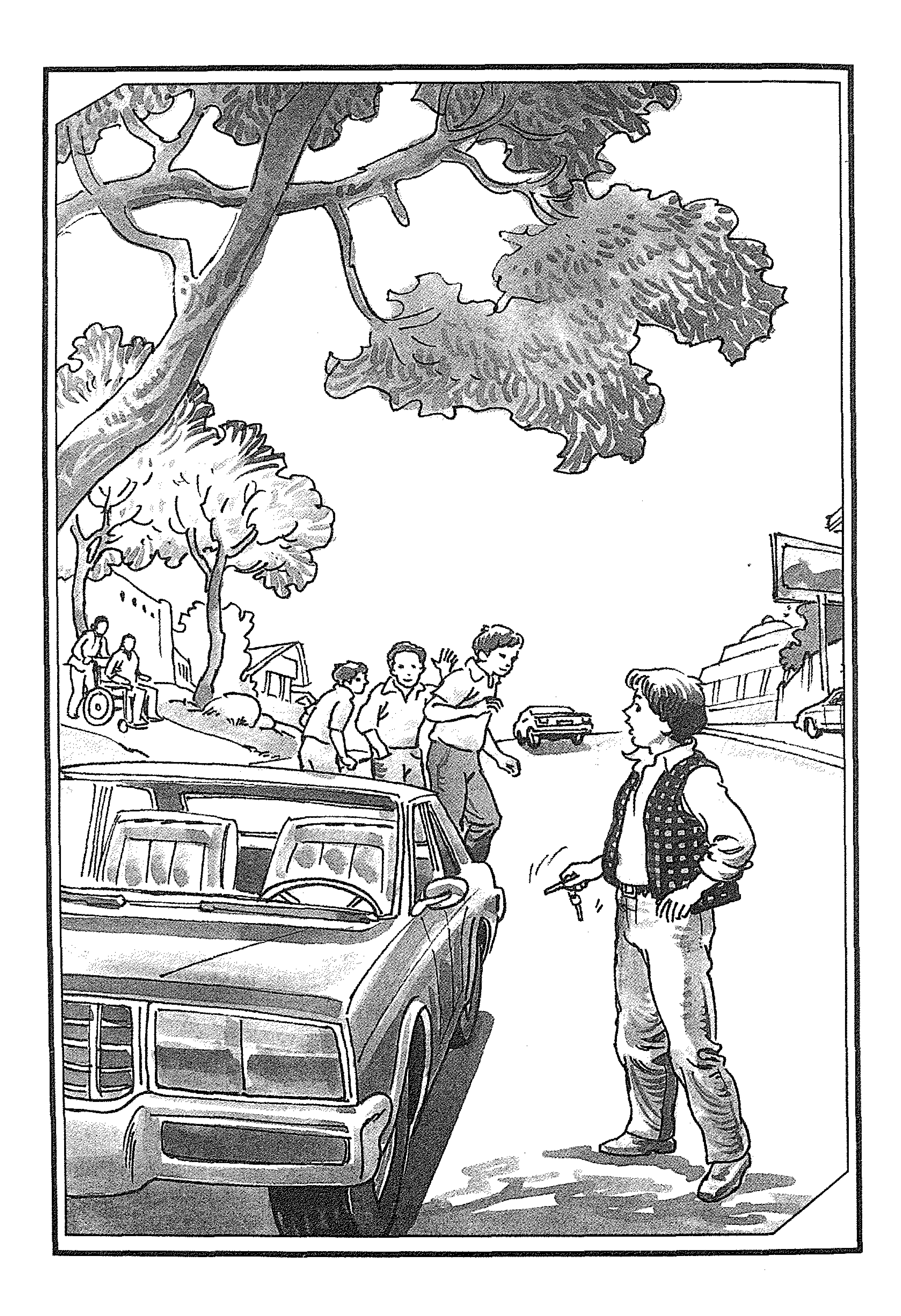
ومسَحَ عينيْهِ بمنـديلٍ أحمَرَ كبيرٍ، وأضافَ: «ومـا زلتُ حتّى الآنَ أحلمُ بوجـهِ الحيَّانِيِّ المسكينِ! أراهُ دائمًا في المشهـدِ نفسِهِ، أنَـا قاعـدٌ في سيـارةٍ غارقـةٍ تحتَ الماءِ، وهـو يسبحُ خارجَهَـا، ويلصِقُ وجهَه بزجاجِ السيارةِ، ويصرخُ صراخًـا صامتًا، وكأنَّهُ يستغِيثُ، والفقـاقيعُ تخرجُ من فمِهِ، وكأنَّـهُ سمكة في حـوضٍ من زجاجٍ. . . ويتقطَّعُ قلبِي، ولا أدري كيفَ أفتحُ لـهُ ليدخلَ عندِي!».

وكانـتْ بينَ الأولادِ طفلةٌ في نحو السـابعةِ، فأصـابَهَا رعبٌ شديـدٌ، وأخذَتْ تصيـحُ باكيةً، وتقـولُ لأخيهَا: «أريـدُ أمِّي! أريدُ أمِّي!».

والْتفَّ الصغـارُ بعضُهُم على بعضٍ، وازدحمُوا حولَ الـرجلِ حتَّى ضيَّقُوا الـدائرةَ عليهِ، فوضعَ ذراعيْهِ حـولَهُم، وأخذَ يهدئُ من رُوعِهِم، ويقولُ : «هذَا حدثَ منذُ زمنٍ بعيدٍ ! بلْ قبلَ أن تـولَـدُوا جميعًـا . . . لنْ أحكيَ لكُمْ قصَّتِي بعـدَ اليـومِ ! كنتُ أظنُّكُمْ كبـارًا وشجعانًـا . . . لكنَّكُم مـا زلتُم رُضَّعًـا تنامـونَ في المهودِ !» .

وطلبَ من كبـارِ جماعتـهِ الأولى أن يـدفعُـوا بـهِ الكـرسيَّ إلى منزلِهِ، فذهبُـوا بهِ، وتركُوا عدنانَ وجماعتَـه، وقدْ خدَّرَتْهُم قصةُ الرجلِ الكسيحِ .

وبحثَ كلُّ واحدٍ منهُم عن عـذرٍ حتَّى لا يركبَ مع عـدنانَ في سيـارتِـهِ المسروقـةِ من أبيــهِ، وتفـرَّقُـوا، كلُّ واحـدٍ في اتجاهِ منزلِـهِ، وعدنـانُ يحاولُ إقناعَهُم بـالركـوبِ معَهُ، ويقـولُ : «يا لكُم من أطفـالٍ صغارٍ! هل صـدَّقْتُم أكاذيبَ ذلكَ الأعـرجِ؟! أقسِمُ لكمْ أنَّ شيئًـا من ذلـكَ لم يقعْ! وأنَّـهُ اخترع تلكَ القصـةَ ليخيفَنَا وينغِّـصَ علينَا نُـزهَتَنَا، ويفتخـرَ علينَا كـذبًا وبهتَـانًا !



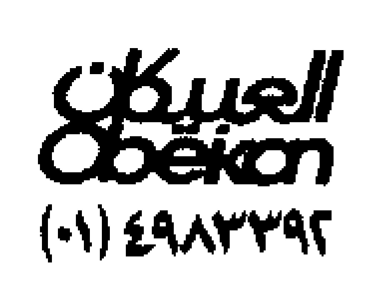
وأقسِمُ لكمْ أنَّ الرجلَ وُلِـدَ كسيحًا، ولكنَّـهُ لا يرضَى أن يعترفَ بذلكَ . . . ألمْ تنظـرُوا إلى ساقيْهِ؟ إنهمَا سـاقَا طفلٍ صغيرٍ لمْ يبلُغِ السابعـةَ ! أنَا لمْ أردْ أن أفضَحَـهُ أمامَ الصغـارِ، حتّى لا ينفضُّوا من حولِهِ، ويبقَى وحيدًا لا يجدُ من يدفعُ بهِ الكرسيَّ . . . » .

ولكنَّ كلامَـهُ كانَ يسقطُ على آذانٍ صماءَ . وانصرفَ الجميعُ، وبقيَ وحـدَهُ، فـذهبَ إلى السيـارةِ كسيرَ الخاطـرِ، لا يصـدِّق كلمةً مما قالَهُ لرفاقِهِ !

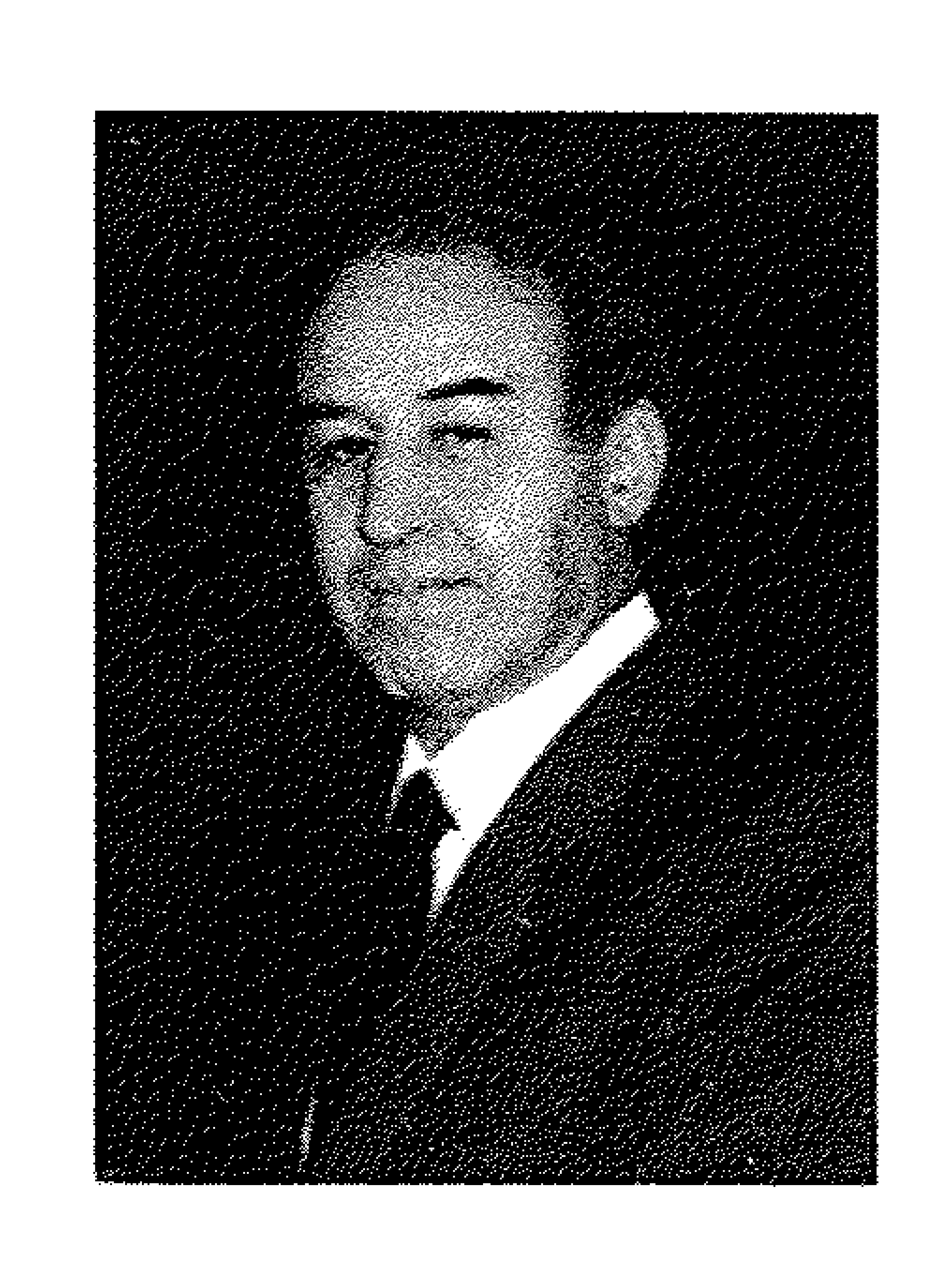
وحينَ أرادَ أن يفتَح بـابَ السيـارةِ، ارتعشَـتْ يَـدُهُ ارتعـاشًـا شديـداً، فأعادَ المِفتاحَ إلى جيبِـهِ، ونزلَ المنحـدرَ إلى بيتِهِ، وأيقظَ السائقَ، وطلبَ منهُ إرجاعَ السيارةِ من ساحةِ مرشانَ إلى البيتِ .

ودخلَ غرفةَ نومهِ، تسبِقُهُ أشباحُ قصةِ الرجلِ الكسيحِ . . .

ولم يُحَدِّثْ نفسَهُ، بعدَ ذلكَ، بسرقةِ سيارةِ والِدِهِ . . .


العبيكان
Obeikan
(٠١) ٤٩٨٣٣٩٢

هذه السلسلة



تضم هذه السلسلة مجموعة مختارة من القصص والروايات التربوية التشويقية المختارة للكاتب المغربي المعروف أحمد عبدالسلام البقالي، الحاصل علي جائزة «المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم».

وهي موجهة للشباب بأسلوب الأستاذ البقالي السلس، وخياله الخصب، وخطوته السريعة التي تنقل القارئ من مفاجأة إلى أخرى، ومن عالم إلى آخر، يقرب للقارئ أحداث الماضي البعيد، ويلقي الأضواء
المستقبل، بالبراعة نفسها التي يتناول بها الحاضر
فالبقالي من أبرع كتاب القصة البوليسية الخ
الحديثة للشباب في العالم العربي.

مكتب